مشكلة التعليم في لبنان

اللغة والقومية

بقلم الدكتور ملك الحاج

اذا كان الشعور القومي يفرض علي ان اعي واجبي نحو الوطن، فمن حقي ايضاً ان اطالب بحرية القول. لا واجب الا ويقابله حق من الحقوق. لذلك سأعمل بمقتضى هذا الحق الذي لي، فاكون صريحاً في ما اقول، اذ ليس من النبل (الشخصي او القومي) ان يلجأ احدنا الى المواربة، عندما يتكلم عن امور الوطن، الى الغش والتضليل متذرعاً بالمصلحة العامة. ان الحق ذاته، الذي يعطيني هذه الحرية، يفرض علي بدوره واجب الصراحة، تجاه الشعب الذي انتسب اليه. لا حق الا ويقابله واجب من الواجبات. وما الواجب، في خاص معناه، الا تلك المسؤولية الواعية، التي يتحملها كل واحد منا عن كل شيء، امام كل الناس.

اجل، ان كل انسان هو مسؤول عن كل شيء امام كل الناس. هذا قول دوستويوفسكي. وقد ازدادت هذه المسؤولية باندماج الامم، بعضها في بعض، عن طريق العلم الذي يقضي كل يوم على خرافة المسافات. لقد تغير مفهومنا للقومية، فلم تعد نزعة واقعية ترتكز فقط على العرق، او العنصر. وتغير مفهومنا للانسانية، فلم تعد نزعة مثالية ترتكز فقط على فكرة، او صورة جوفاء. اصبحت القومية والانسانية تتعاضدان، رغم تناقضهما. اصبحت القومية بحاجة الى الانسانية، لترتفع نحو مثالية عادلة. واصبحت الانسانية بحاجة الى القومية، كي تتحقق في عالم الواقع. وقد ازدادت، من جراء ذلك، مسؤولية الفرد اكثر فاكثر، حيال الناس كلهم. لم يعد قادراً على التهرب من واجب الصراحة العاقلة. ان كل انسان هو مسؤول عما يحدث في المجتمع، الذي يحيط به ... لذلك سأكون صريحاً في ما كلفت الجواب عنه.

*

السؤال هو الآتي: هل اسهم التعليم، عندنا، في خلق المواطن الصالح؟ هل قامت المدارس، في لبنان، بما يتوجب عليها من اذكاء الشعور القومي؟ جوابي، كلا. لقد أفلس التعليم، عندنا. افلس القلم. افلس الفكر، عموماً: في لبنان. لا تربية، عندنا، تساعد على ايجاد المواطن الصالح. لا ادب، بمعناه الابي، من حيث النتاج الصافي. اما كيف نوهم الغير (او نوهم انفسنا) اننا بلد الاشعاع، فهذا وايم الحق من ضروب السحر العجيب. لقد اعلن طه حسين مرتين ان زعامة الادب انتقلت من القاهرة الى لبنان. وفي اعتقادي ان غايات سياسية هي التي حدت كاتب « الايام » على مثل هذا الاعلان. ولكننا ادرى بما في بيتنا. والجدة تفرض ان نصدق انفسنا القول، على ان نتعاظم في غير حق. هذا اذا كنا من طلاب رأس الحكمة.

القومية والانسانية

يعود فشلنا في التعليم (كما يعود في اشياء اخرى) الى فشل التربية عندنا، اي الى خطأ نظرتنا في الانسان. هذه النظرة لا يقرها الواقع. فما هي نظرتنا هذه في الانسان؟ من هنا يجب ان نبدأ.

امامنا نظريتان: واحدة تقول بان الانسان هو مواطن عالمي، وثانية تقول بان الانسان هو مواطن قومي. بين العالمية والقومية تأرجحت التحديدات للانسان. منهم من قال بالترفع عن شروط الوطن الواحد. الانسان اخو الانسان، ولا فرق بين مختلف الاوطان. وهل العالم الا وطن مشترك لكل الناس؟ اما الحدود، بين الشعوب، فهي من الامور التي اوجدتها الوقائع الحربية، وشرّعتها الاعتبارات السياسية. ولكن السماء ملك للجميع، والارض ملك للجميع، والهواء والماء ملك للجميع. ولا يجوز مطلقاً ان نقيم سدوداً بين امة وامة، لان الانسان هو هو، في كل مكان وزمان. هذه هي نظرتنا في الانسان، ولكنها نظرة افلاطونية خرقاء.

لاشك عندي في ان هذه النظرة لا تخلو من إغراء، لا تخلو من جذب يثير في الاذهان احلاماً جميلة. انها تلوّح امام الخيال بغصن الزيتون. تلوّح بالسلام العالمي الدائم. تهدهدنا بفكرة الاخوة الانسانية. والنفس البشرية توّاقة الى مثل هذا النغم، لانها ترنو جوهراً الى الكمال المطلق. هذه الكوزموبوليتية تلاقي، في قلوب السذج عندنا، رواجاً هائلاً.

الحق هو ان التغني بالشعور الانساني يجب ان يبتدىء من الشعور القومي. لا سماء إلا في بدء من الارض. ذلك لان الانسان وليد زمان ومكان، وليد وطن واحد، امتداد تاريخ واحد، وبالتالي لغة واحدة. هذا هو الواقع الانساني. طلب العالمية، بدون الارتكاز على القومية، يفضي الى الجدب. الى انسانية لا يقطنها انسان. الى انسانية تدور في حلقة مفرغة.

يقول ارسطوطاليس: الانسان حيوان سياسي. يقصد بذلك ان الانسان هو كائن اجتماعي بالطبع. ويضيف قائلاً: والذي يبقى متوحشاً بحكم النظام، لا بحكم المصادفة، هو على التحقيق انسان ساقط، او انسان اسمى من النوع الانساني.

واليه يمكن ان يوجه توبيخ هوميروس : بلا عائلة ، وبلا قوانين ، وبلا بيت . ان الانسان الذي يكون بطبعه ، كما وصفه الشاعر ، لا يستروح الى الحرب ، لانه غير كفء لاي اجتماع ، كجوارح الطير [1] .

★

يفيد هذا القول لارسطوطاليس ان الانسانية اللاقومية هي من نسج الخيال الاعرج . هي فقاقيع اوهام . ولكنها جذابة ، لانها توفر على الانسان الواجبات الفعلية ، التي يفرضها الوطن . غم ان الحربين العالميتين جاءتا ردة فعل قوية ، افقدت الكوزموبوليتية كل إغرائها ، وجعلت الانسانية الحقة هي التي تبتديء من القومية الحقة .

هذا الاتجاه القومي ، في مفهوم الانسانية ، لا يناقض فكرة السلام العام . لا يرفض مبدأ «الانسان اخو الانسان» .

ولكن دعوته الى العام ترتكز على احترام الخاص . لتحافظ كل امة على ما لها من تراث . لتظل متمسكة بعنديهاتها ، على ان تظهر المحبة للآخرين . لتحرص على شؤونها الخاصة ، لتعمل على انماء كنوزها في قلوب ابنائها ، دون ان تزرع فيهم البغض للأمم الاخرى . ان القومية عاطفة ثابتة في صدر الانسان ، نشأت منذ كان ، وستبقى ما بقي . ولا اعني بالقومية نزعة اقليمية ، عنصرية ، تقوم على احتقار القوميات الباقية . هذه قومية سلبية . وانما اعني ، ههنا ، القومية الايجابية التي تقوم على الاعتدال ، والتساهل ، ورفع قيمة الشخصية الانسانية . الوطن قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . ومن هنا قول الشاعر :

بلادي وان جارت علي عزيزة واهلي وان ضنوا علي كرام .

*

تحضرني ، هنا ، صورة الريحاني . لقد هجر امين لبنان ، وهو في العاشرة من عمره ، فكانت نيويورك مسرح ألعابه ومغامراته ، وطبعت نفسه بطابعها الخاص ، حتى صار من ابنائها . لقد سبقت لغة شكسبير لغة ابي العلاء المعري الى لسانه وقلمه ، شعراً ونثراً ، فوقع في فخ التأليف هناك ، قبل ان يقع فيه ، هنا ، في وطنه الاول . ومن عجيب ما حدث في ارتقائه الفكري ، وتطوره القومي ، ان قامت المشادة بين ذاته الشرقي وذاته الغربي . بين الانسانية والقومية . ذات ليلة نهض من نومه ، عند صياح الديك ، فاذا به يتصور نفسه اكبر من اميركا . لماذا ؟ يقول :

« ان النكبة الكبرى في قطر من الاقطار العربية ، اي نكبة فلسطين بالصهيونية ، نقلتني من التعميم الى التخصيص ، دفاعاً عن اخواني العرب [2] »

لقد اصبح امين لبنانياً عربياً ، وقد كان عليه ان يعيش اميركياً قلباً وقالباً ، لباً وقشراً . قال ، وما اجمل ما قال :

« ثبت عندي ان الشاعر الحقيقي يخلص الخدمة لوطنه ، اولا ، ومن ثم يتدرج الى خدمة الانسانية . او يخدم الوطن والانسانية معاً ، اذا كان من النوابغ الحقيقيين النادرين في كل امة وبلاد . وبعد ان فكرت في امري هذا ، وسمعت المباحثة التي جرت بين ذاتي السوري وذاتي الاميركي ، حكمت للاول على الثاني ، ورضيت ان اكون من الطبقة الاولى في الوطنية ، ولو جعلني ذلك في الطبقة الوسطى من الشعر . وهكذا عدت الى الكتابة من اليمين الى الشمال ، ولكنني حفظت في قلبي زاوية للغة التي اكتسبتها في العالم الجديد . نعم ان ولعي بلغتي وبوطني لقوي شديد . ولو سألتموني ايراد الاسباب التي توجب هذا الولع لقلت لكم احب لغتي لانني احب نفسي ، واحب وطني لانني احب قومي . وقد يحملني هذا الولع والحب الى الغلو احياناً . فقد قرأت مرة ان غالينوس كان يقول : اجود هواء في الدنيا هواء بلاد اليونان . وقال ابن رشد : ان اجود هواء هواء قرطبة (بلده) . وقال ملتن : ان الهواء النقي المحيي لا يهجر ابداً لندن . واقول انا : ان هواء لبنان لهو نفس الالهة بالذات . وكلنا لا شك مصيبون ، وما غلوي انا الا جزء من غلو اولئك الفلاسفة الكرام . هذه الثمرة من تلك الشجرة » .

وقال ، في الصدد ذاته ، فليكس فارس ما يلي :

« على انني ، انا ، وقد فتح المقدور فيا ورثت من ثقافات امام شعوري نوافذ عديدة الى جانب النافذة العربية الشرقية ، فانه ليتسنى لي ان المح الشعور بالحياة لمحاً من نوافذ الثقافات الغربية عندما اشاء ان اقفل النافذة الكبرى الى حين ، فان تنصت الى موسيقى بيتهوفن وموزار وصلت الى شعوري الباطن الخفي اهتزازات هذه الموسيقى كانها صدى خافت لصوت بعيد اقف عنده محولا كل ما في من عزم للاعتلاء مع هذه النغمات ، فاستغرق في بحران المبهوت امام جمال رائع في وجه اسدل القناع عليه ، واشعر ان لاختياري سهماً وافراً في ما اتمتع به من لذة . غير انني اذا كنت لا ادرك اللذة الكاملة من هذه النغمات فلا يفوتني ان استجلي الافاق التي تنجذب اليها عواطف الغربيين انفسهم فيحلقون فيها بقوة ما في فطرتهم من الاستهواء الكامن ، وانني لاشعر بمثل هذا الشعور امام كل ثقافة غربية سواء تجلت في الانشاء او الشعر او العادات والتقاليد ، فانني وانا المدرك بشيء من الفطرة ما لا يدركه ابناء قومي من الغرائز الاجنبية ، متيقن من امتناع دخول انوار الحياة الي الا من النافذة العربية الشرقية الكبرى التي تطلع اجدادي قبلي منها الى اشباح الحياة مستجلين منها جميلها وقبيحها ... لقد قدر لي ان اجيء الحياة من اب لبناني عربي ومن ام سورية بامها هولندية بابيها . ارجع الى كوامن الغريزة في فاشعر بالفطرة العربية متغلبة على سائر ما ورثت من نزعات اوروبية » [2]

---

١ راجع كتاب السياسة لارسطوطاليس . ترجمة احمد لطفي السيد . ص ٩٥ . القاهرة عام ١٩٤٧ .

١ راجع كتابه المغرب الاقصى . ص ٩ . دار المعارف بمصر ١٩٥٢

٢ راجع كتابه رسالة المنبر الى الشرق العربي ص ٦٩ و ٧١

مهما يكن من امر ، فالانسان ملتقى الخاص والعـــام . ملتقى الوطن والعـــالم ، القومية والانسانية . هو يرنو الى المطلق . ولكن هذا الرنو لا يحصل الا من خلال نافذة واحدة ، هي نافذة النسبي . التعليم الصحيح اذن يرتكز على تربية صحيحة ، والتربية الصحيحة تقوم على هذين المدماكين : انماء الشعور الانساني بالاستناد الى الشعور القومي . التربية الصحيحة هي التي تري الطالب ان عقلاً واحداً قد وزع ، من حيث الأصل ، اعدل توزيع بين الناس . هذا هو الشعور بالانسانية . وهي التي تري الطالب انه لا يكفي ان نفكر جيداً ، وانما يجب ان نجيد تطبيق هذا الفكر ، والتطبيـق لا يكون الا في نطاق الوطن . هذا هو الشعور بالقومية . شعوران متضامنان متى فسد احدهما فسد الآخر جبراً . كلاهما واجب وجـود لاخيه . ولهذا قيل محبة الاوطان من الايمان . ان الذي يعمل في سبيل امته ، بعدل وتسامح ، يعمل ايضاً في سبيل الانسانية . اما الذي يعمل في سبيل الانسانية ، دون الارتكاز عـــلى قاعدة من هذا العالم (اعني الوطن) فهو يعمل في دائرة خاوية ، خالية من قلب ينبض ، وعين تدمع ، وصدر يحن .

٢

الاعتبارات الثلاثة

التربية ، اذن ، تتناول هذين المعطيين : القومية والانسانية في النفس البشرية . ولا اخال أحداً ان اللغة (اعـــني اللغة – الام) هي من اهم عوامل القومية . هي العامل الاول لترسيخ القومية في قلب الانسان . قد يقوم السياسيون باصلاحات ، في الشعب ، تهدف الى رفاهيته . ولكن الاسس الحقيقية لهذه الاصلاحات يجب ان تحدث في العقول اولاً . كل حركة اصلاحية ، مهما يكن سمتها ، تستمد زخمها من الفكر . المفكرون هم الذين يمهدون الطريق ، دائماً ، لكل عمل بناء في المجتمع . هم الزعماء حقاً . ولا عجب ان يكون هـذا هو الواقع ، لان الانسان – جوهراً – فكر يبحث ، ويستقرىء ويستنتج ، ويقيّم . هذا هو الانسان ، في استقلاله الحـق ، فكرٌ يحاول ان يعي انه كائن يفكر . والفكر لا ينفصل عن اللغة ، التي هي عين عينه . ومن هنا دورها الخطير في بناء شخصية الانسان ، فرداً ومجتمعاً . من هنا بالتالي اثرها في ايقاظ الشعور القومي ، او الوعي القومي . ان اللغة في حياة الامـة ، هي الدليل الاول على نشاطها ، في مجموعها . اقول هذا مستنداً الى اعتبارات ثلاثة .

الاعتبار الفلسفي

من اخطائنا الشائعة فصل اللغة عن الفكر ، واعتبارهـــا واسطة لغاية . هذا الاعتقاد يجعلنا نتخيل الفكر قادراً عـلى ان يستقل عن اللغة ، وان ينطلق حراً في اجوائه الخاصة . نتخيله قادراً ، ساعة يريد ، على ان يفصح باية لغـة عن ادق مزايا طبعه . ان القائلين بهذا المبدأ يجهلون اننا لا نستطيع ، في حال من الاحوال ، ان نميز جوهراً بين منطقة الفكر ومنطقة اللغة . يجهلون ان الكلمة ملتصقة من الداخل بالاتجاه الباطني ، التصاقاً حميمياً ، لم يترك مجالاً لعلماء النفس كي ينكروه .

اين ينتهي الفكر وتبدأ اللغة ؟ سؤال لا يمكننا ان نجيب عنه ، لنتخيل الفكر حراً طليقاً في دوائره . نحن لا نعلم اين ، ومتى ، وكيف نطق اول من نطق . ان المباحث اللغويـة كلها ، والنفسية ، والاجتماعية تدل على ان الانسان لم يكن اولاً ، ثم تكلّم . الانسان كائن ناطق ، منذ ان وجد . عكس هذا القول ، لا يستطيع التاريخ ان يثبته . يتحصل من هذا ان نمو الفكر مرتبط بنمو اللغة .

ان ما نسميه بعالم المثل الافلاطونية لا وجود له البتة . كل فكرة ، مهما علت في سماء التجريد ، هي لغة . وكل لغة ، مهما تكاثفت ، هي فكر . الفرق بينهما ... ماذا اقول ؟ لا فرق بينهما قطعاً . الفكر هو حوار لغوي صامت . اللغة هي حوار فكري ناطق . اذا اعتبرنا اللغة اكثر من قرع شفتين ، اي الشكل المحسوس للفكر والقلب ، لم يعد بينهما تناقض ، على الاطلاق .

الاعتبار الاجتماعي

اللغة هي المستودع الاكبر ، والامين ، للتراث الاجتماعي وهي العامل الاوحد لنشر هذا التراث بصورة مشتركة بين مختلف صفوف الشعب . لهذا كانت علة ضمّ افراد الامة . بها يتسلم الجيل الطالع من الجيل المتواري نظرته في الانسان ، والمادة ، والخالق ، فتكون همزة وصل الاجيال بعضهـا ببعض .

لا بد للانسان من ماض ، من جذر له في الزمان . هو ابن تاريخه ، وتاريخه واحد ، لا اثنان . هذا التاريخ الاوحد هو مجموع الآداب ، والعادات ، والعواطف ، والافكار ، التي تكون قوام شعبه . هذا التاريخ ، او هذه المجموعة من

ضروب الحياة ، قد وضعت في ذمة اللغة القومية. اللغة القومية ليست حفنة من الالفاظ المفككة بعضها عن بعض . هذا فهم جامد للغة . اللغة كائن حي يعكس فيه جميع مزايا المجتمع .

ليس هناك احكم من اللغات في تعريف مرامي الشعوب، واوائها ، لان الكلمات التي يتلفظ بها الناس تظهر لنا انهم من اهل الزراع ، او الصناع ، او التجار ، او رجال الحرب ، او انهم من اهل الخيال او الحقائق ، ومن المطبوعين على بسط المزاج او قبضه. اما قيل الانشاء هو الانسان ذاته؟ ومن هنا كانت اللغة القومية من اهم الاساليب التي تصهر عناصر الأمة في بوتقة واحدة .

من اجل هذا كانت عظيمة جداً ، جريمة الذين يفرضون لغة اجنبية كأداة للتدريس . لكأني بهم يفرضون على التلميذ ان يعيش غير تاريخه ، ان ينتسب الى اجداد غير اجداده. ان ينتمي الى غير فصيلته ، الى غير امته . وهو عمل اقل ما يقال فيه بانه زنى ، على صعيد فكري . ان جهود هؤلاء لا تأتي بالثمر النافع ، بل تساعد على خلق جيل لا شيء يربطه بمحيطه ، ويصله باختبارات السابقين من اسلافهم . معارف هذا الجيل تظل جد سطحية . ان الطالب الذي يتقن العلوم بلغته القومية الطائعة لمعطيات افكاره ، يبز الطالب الذي يناخ لالفاظ في اللغة لم يتسلمها فطرة من اجداده . هذه اللغة ، التي يجبر لسانه ودماغه على مزاولتها ، تصبح قيداً لافكاره ، لا فضاء حراً فسيحاً يخترقه .

الاعتبار التربوي

دلت جميع المباحث التربوية على ان الطالب ، الذي يتدرب على صحة التعبير ، يتدرب ايضاً على صحة التفكير . التعبير والتفكير (كما نوهت بذلك) جوهر واحد . لذلك يوصي المربون المعلمين ان يتعهدوا عند الطالب قوة النطق ، والمقدرة على الكلام ، ان يشجعوا الطالب على التعبير عن حاجاته ، ورغائبه ، وشعوره . الطالب يحمل بين جنباته حياة فتية ، جل همها ان تجد المنافذ الواجبة التي تطلقها الى الخارج . هو كتلة نشاطات تريد ان تتفجر ، ان تعبر عن ذاتها تعبيراً يجب ان يحصل بصورة عفوية ، لا تعب فيها .

هنا اريد ان الفت انظار الذين يعالجون المسائل التربوية . ان الطالب بحاجة الى ان يعبر بطريقة سليقية . ولكي يعبر التعبير السليقي ، عن مجموع افكاره وعواطفه (فتنمو الحياة وفق ابعادها الطبيعية) يجب ان تكون اللغة ، التي يتكلمها في المدرسة ، هي من فصيلة اللغة التي يتكلمها في البيت والشارع . ان اللغة الاجنبية ، لا تتدفق من تحت لسانه بالعفوية ، التي تتدفق فيها اللغة القومية . هنا لا يجرد ، بل يعيش محرور وجدانياته ، محمولاً على اكف الاسترسال اللاواعي . وهو شرط اولي في تلقين العلوم ، عند الطالب ، الذي لم يمكن عوده بعد .

تصوروا معي ، على ضوء ما قدمت ، الجريمة الانسانية التي ترتكبها بعض مدارسنا حين تفرض على التلميذ ان يتكلم وقت اللعب لغة اجنبية ، تحت طائلة العقاب ، اذا عصى او

صدر حديثاً

عن

منشورات

مكتبة المعارف في بيروت

رأس المال

كارل ماركس

● وثيقة الاعلام ضد الرأسمالية والاستعمار .

● يعرض الوف الكتب الاقتصادية وينقدها .

● الكتاب الذي وضع فيه كارل ماركس أساس الاشتراكية العلمية ، فكان كنيزة للثورة الاشتراكية في العالم .

ترجمة

محمد عيتاني

الثمن ٣٠٠ ق. ل

خل بالقاعدة . هذه الطريقة الشنيعة ، قلت هذه الجريمة التربوية تساعد على كبت قوى الولد ، وتحرمه التعبير السليقي ، الذي هو من اكبر مستلزمات النمو ، في سبيل تحقيق ذات واعية ، نشيطة مسؤولة .

٣

الفئات الثلاث

الآن وقد رأينا كيف ان الانسان ذو حركة جدلية بين الخاص والعام ، بين النسبي والمطلق ، بين الأرض والسماء ، اي انه ملتقى النزعة القومية والشعور الانساني ؛ كيف ان صفاءه يقوم على كونه فكراً يعي انه وجود ، انبل ما فيه عقل يفكر ؛ كيف ان الفكر ، مهما ضرب في صفائه ، لا وجود له بمعزل عن اللغة — الآن وقد رأينا خطورة اللغة بالاستناد الى ديوان الفلسفة ، والاجتماع ، والتربية ؛ بعد هذا كله ، جدير بنا ان نتساءل عما هو موقفنا من اللغة العربية ، هل نحن مهيأون لجعلها تتبوأ مركز الصدارة ، في حياتنا القومية ؟ هل نحن مستعدون لاحلالها المنبر الذي تستحقه ، في طرقنا التعليمية هل نحن مطلعون على فلسفة اللغة ، بصورتها الحقيقية ؟

جوابي اننا بدأنا نعي خطورة الدور ، الذي تقوم به اللغة ، في الحياة القومية . بدأنا نعي ان لا مواطن صالحاً ، اذا كان يحتقر لغة امته . اذا كان يزاول في التعبير لساناً غير لسان قومه . اجل ، بدأنا نتحسس ضخامة هذا الشيء ، ولكننا ما زلنا نواجه اعداء ، يعملون على تخريب ديار اللغة العربية . واني اقسم هؤلاء الاعداء الى فئات ثلاث .

الفئة الاولى

تريد هذه الفئة ان يظل التعليم ، عندنا (لاسيما العالي منه) باللغات الاجنبية ، كي لا ننقطع عن النشاط الفكري العالمي . وقد عبر عن هذا الرأي الاب لامنس في مثل قوله :

« يجب ان يعنى اهل البلاد العربية بلفتهم باعتبار انها لغة وطنية ، على انهم ينبغي لهم ان يثابروا على تعلم اللغات الاوروبية التي مكنت السوريين بوجه خاص ان يلعبوا دورهم التاريخي . وليس عندي ادنى شك في انه اذا جعل التعليم العالي باللغة العربية تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة ، اذ تصبح اللغة الوطنية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدم [١] » .

هذا رأي مستشرق فاضل ، وله مروجون كثر عندنا . لكنه رأي خطّاء ، اذ ليس في عالم اللغات بنت ست وبنت امة ، من حيث الاساس . ليس في عالم اللغات احتكار . العلم ، بمعناه الابيّ ، لا يفضل لغة على لغة . والارتقاء لم ينحصر يوماً من الايام ، في هذه اللغة او تلك . اللغات كلها اخوات من حيث محض الكيان البشري . فلم يريدون ان يكون للغات الاوروبية فضائل تهذيبية ، لا تكون للغة العربية ايضاً ؟ اذا صح قولهم بان اللغات الاوروبية تتمتع بقوى عجيبة ، غريبة ، لا تتمتع بها اللغة العربية ، تعطلت كل رغبة في الحصول على الحقيقة ، التي تصبح وليدة بيئة وشعب ولغة . تصبح وليدة زمان ، ومكان ، وتنتفي عنها صفة الاطلاق . وما ذنبي اذا كانت المصادفة قد ارتني النور في بلد يلسن عربياً ؟ ايجوز لنا ان نحبس الارتقاء العلمي في لغة دون لغة ؟

اعلم ان تكون اللغة العربية ، في شكلها الحاضر ، عاجزة عن ان تؤدي كل معاني الارتقاء العلمي . ولكن مثل هذا العجز لا يبرر وصمه بالدونية اساساً . ان كل لغة بشرية تكبو في بدء نهضتها . هذه الكبوة لا تكون لغير حقبة من التاريخ ، فقط ، حتى اذا ما اراد الشعب الذي يتكلمها ان تصبح ذات ثروة تعبيرية ، نشطت ، ولحقت بغيرها من لغات الامم المتمدنة . اما ان يقال بان اللغة الوطنية تقف حاجزاً في وجه التقدم ، فهذا من غريب الامور ، وعجيبها . جميع الادلة التاريخية ، والاجتماعية ، تشير الى ان الامة لا تتقدم بمعزل عن لغتها . الامة الراقية لا تكون لغتها راقية جزئياً . لِمَ لم تقل اوروبا مثل هذا القول ، في القرن الوسيط ، يوم كانت تتتلمذ على يد العرب ؟ الم تكن لغاتها عصر ذاك ، دون اللغة العربية ارتقاء وغنى بالمصطلحات ؟ لِم حرصت عليها ، اذن ، ولم تجعل التعليم العالي باللغة العربية ، لئلا تنعزل شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة ؟

ننسى ، نحن ، ان تسرب الحركة العامة ، من شعب الى شعب ، يجب ان يتم عن طريق الترجمة ، ليجدي نفعاً في حقلي القومية والانسانية . الترجمة ، هي المقياس الحقيقي لمعرفة الحد الذي تذهب اليه الامة ، في مجال الفكر السامي . هي الكفيلة وحدها بالمحافظة على قومية اللغة وانسانية الفكر ، لانها تغني ثروة اللسان بالمفردات الجديدة ، وترفعه من ثم الى مصاف الالسنة البشرية الراقية . ليس من الصحة في شيء ، ولا من عزة الجانب ، والاباء الانساني ، ان يهوّن المرء خطورة لغته القومية متذرعاً بالحركة العامة . ان مثل هذا

١ ذكرت هذه الفقرة في كتاب فليكس فارس «رسالة المنبر الى الشرق العربي» ص ٧١ .

التهوين لا يُعد حضارة، ولا ثقافة. هو انحطاط في الخلق، لانه يضعف قيمة الانسان كمخلوق مسؤول عما يجب ان يكونه. هو انحدار، وتحطيم للقيم السماوية عينها، ان ينتمي الانسان الى امة ويتكلم لغة امة اخرى. هذا، في نظري، زنى على صعيدفكري. هذا سقوط مخيف في دركات الوحشية، التي تحدث عنها ارسطوطاليس. الترجمة هي التي يجب عليها ان تلعب دور الارتباط، في الحركة العامة، بين شعب وشعب. وقد لعبته قديماً، عندنا، فكان بيت الحكمة.

الفئة الثانية

تريد هذه الفئة ان يكون لبنان متعدد اللغات ـ الام. وقد عبر عن هذا الرأي ميشال شيحا في مثل قوله:

« ان بلداً كلبنان، اذا لم يتكلم لسانين (او ثلاثة ان امكنه ذلك) اقل ما يقال فيه انه بلد ابتر. والحقيقة اننا نحتفظ، هنا منذ عدة سنين، بمجموعة من اللغات الحية والميتة. والا ماذا يمكننا ان نعطي للشرق اذا كنا لا نأخذ من الغرب، والعكس بالعكس. وكيف نستطيع ان نصون، ونتعهد الروابط اللازمة التي يفرضها علينا التعليم في جميع مراحله، والتي توجبها المباحث العلمية، والاسفار، والتجارات، والسياحات (عندنا) من اللبنانيين المهاجرين الى انحاء العالم كله. هذا بالاضافة الى الضرورات الحاسمة في السياسة التي يفرضها موقفنا الجغرافي. قلت كيف نصون هذه الروابط اللازمة، اذا كنا لا نملك الى جانب اللغة العربية، وبالاحكام ذاته، لغة عالمية؟ لقد كان لبنان قبل اكتشاف الاحرف الابجدية متعدد الالسنة، وهو امر يعد تفوقاً في حد ذاته. وما برح منذ افتتاح الاسكندر (وبصورة رسمية بالواقع) بلداً ذا لسانين على اقل تقدير [1] »

لا شك في ان الالمام بالعلوم البشرية يقضي على الانسان ان يعرف اكثر من لغته ـ الام. لا ثقافة حقة اذا حصر المرء ذاته في نطاق لغة واحدة. وقد زادت هذه الحاجة، في عصرنا الحالي، نظراً لتشابك الامم بعضها ببعض، واتساع دائرة حاجات الانسان اليومية. ان الانسان لا يقنع بعد الآن بلسان شعبه فقط، بل اصبح كل بلد في العالم متعدد اللغات. ولبنان لا ينفرد وحده بهذه الفضيلة، كما نظن عادة.

ولكن الذي اريد ان الفت النظر اليه (وهو من الخطر والخطورة بمكان) ان اللغات الاخرى، التي يتعلمها الانسان الى جانب لغته ـ الام، ليست معادلة لهذه من حيث القيمة في الاداء. لم يعط للانسان ان يعبر عن حالاته الوجدانية الا في لغته ـ الام، التي تكفل وحدها لألمعيته ان تدرك فلك الخلق والابداع. مثل اللغة ـ الام مثل القومية الواحدة، التي تكون بمثابة مرتكز ارضي خاص، كي يرتفع المرء نحو سماء الانسانية العامة. لا نبلغ المطلق الا من خلال نسبي معين. هذه هي جبلة الانسان.

***

لا ريب في ان تعدد الالسنة يزيد ثقافة الانسان، لانه يفتح شبابيك عدة في النفس، يطل منها الفكر على آفاق متنوعة الالوان. ولكن هذه الثقافة لا تجدي نفعاً صحيحاً، اذا تضاربت مع هدف التربية الحقة: اعني المحافظة على عفاف الشعور القومي، وعلى عفاف الشعور الانساني. ان صلة رحميّة مساسة تربط هذين العفافين بعضهما ببعض. فاذا كان تعدد الالسنة يقضي على عفاف اللغة ـ الام، ويحاربها في عقر دارها، اختلّ التوازن، وفسدت غاية الثقافة القائمة على ان لا تقف بالانسان عند عتبة العلم فقط. ولكن على ان توصله الى التربية الحقة. اجل يختل التوازن، فتعوج الانسانية، وتتدنس القومية. هكذا نسجت خيوط الانسان: لقد كتب لنا ان نقرأ جميع لغات الارض، وان نفهمها ايضاً. ولكنه لم يعط لنا ان نعبر بعفاف ادائي الا في لغة واحدة، هي اللغة ـ الأم. هذه اللغة هي الكفيلة وحدها ان تسمو بالفكر الى درجة العبقرية الخلاقة الخالدة. مهما برعنا في اللغات الاجنبية، فاننا نحتفظ فيها ـ دائماً وابداً ـ بروح الأجداد، دون ارادة منا. وهو سبب الغموض الذي يطغى على انشائنا. سبب العبودية ايضاً، ولكن بشكل ثقافة. ان الاحكام، الذي يطلبه منا ميشال شيحا في مزاولتنا اللغات الأجنبية، هو محض وهم. هو تحوير لحقيقة الكيان الانساني. واحد من اثنين: اما ان يحكم الانسان لغة اجنبية، فتحتل مركز الصدارة، وتصير بدورها اللغة الأم؛ اذ ذاك تلغى امومة اللغة الأولى، لتصبح لغة تابعة. ومتى تأجنبت اللغة تأجنب الفكر، حتماً، اذ لا فرق جوهراً بين عقل ونطق. ومتى تأجنب الفكر تأجنب الشعور القومي، اذ لا يمكن ان يحكم الانسان لغة ما، فتنقلب لغته ـ الام، بدون ان تميل كل جوارحه النفسية نحو الشعب الذي يتكلم هذه اللغة. واما ان يحافظ الانسان على عفاف لغته ـ الام الاولى، ويزاول

ـ البقية على الصفحة ٧٦ ـ

[1] راجع كتابه Liban d'aujourd'hui ص ٥٥.

مشكلة التعليم في لبنان :
اللغة والقومية
- تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ -

اللغات الاجنبية برفق وسياسة ، كي لا يرفع التكليف معهـا ، فتتطاول على اللغة الاصيلة ، وتقوم القيامة فيا بينها . لا مفر من النافذة الواحدة ، فقط ، للاطلال على مروج المطلق الشامل . وما يقال في الفرد ، يقال في المجتمع . لكل شعب لغة قومية واحدة ، هي لغته – الام .

★

لا يدخل في بالي ، مطلقاً ، ان اهاجم اللغات الاجنبية . معاذ الله . لست من الذين يرغبون في الهدم لاجل الهدم . اؤمن بان الحياة بناء ، شرط ان نحسن وضع مداميكها ، الواحد فوق الآخر . البناء ليس عملاً اعتباطياً ، نطلبه كيف نشاء . هو ذو منطق صارم ، عندما نشتط عنه ، يدركنا الخراب . هذا المنطق يقول بان الانسان امتداد امة واحدة ، ولغة واحدة .

الفئة الثالثة

تريد هذه الفئة ان تحل العامية محل الفصحى . وقد تجنّد للدفاع عن هذه القضية محاميان : الاول ، وهو الدكتور انيس فريحه ، عالجها نظرياً في كتابه « نحو عربية ميسرة » . الثاني ، وهو الاستاذ سعيد عقل ، عبر بها من دنيا النظر الى دنيا العمل ، فقدّم بالعامية لديوان «جلنار» للشاعر العاميّ ميشال طراد . وكانت مقدمته محاولة بحث فلسفي في موضوع الجمال.

لا اريد ان اتبسّط ، من حيث الجدل المنطقي ، في هذه القضية التي لا اؤمن بصحة مطلبها . سأعود اليها ، في غير هذا المقام ، عودةً شبيهة لاظهر ما تقوم عليه من اخطاء لغوية ، وفلسفية ، واجتماعيـة . اكتفي هنا ، بالقول ان هذه الفئة الداعية الى العامية ، تدفع بعجلـة لبنان الى الوراء . ان الشعب الذي لا تحمل لغته فيها ازدواجية صريحة ، كما هي الحالة في لغتنا العربية ، هو شعب من الهمج . هـو شعب متوحش ، من حيث اطلاله الغبي على الوجود . ذلك لأن الشعب الذي يضرب في الحضارة فيكون له ما ورائيات وعلوم يتجتم على لغته المكتوبة ان تختلف عن لغته المحكية . ان الشعوب الخالية من آداب عالمية ، ومن نظريات الهية ، هي وحدها ذات لغة لا ازدواجية فيها. اما الامم المتحضرة (والتاريخ امامنا اكبر شاهد) فهي لا تكتب كما تحكي ولا تحكي كما تكتب .

اقول هذا لان وجود الانسان يقوم على محركين : العقل والقلب . هذان المحركان يدوران ، كل في دائرته ، دون ان يحصل التناقض بينهما . هو تفاوت مخالف لا تفاوت مخالف . لا عجب ، والحالة هـذه ، ان يكون للعقل نمط في التعبير ، وللقلب نمط آخر في التعبير ، ضمن فصيلة واحدة ، هي اللغة – الام الاصيلة . كلما تقدم الانسان في المدنية اتضح الفارق بين اساليب العقل واساليب القلب .

لغة القلب ، او لغة الحياة اليومية ، تطفو على سطح الوجدان . هي دائماً لغة فجائية ، تلقائية ، انفعالية . والانفعـال لا يتيسر له وقت ولا فراغ ، كي يعمل الروية . ولهذا يسيطر على الجملة ، ويقتصر على ابراز ترويسات افكارنا ، وعواطفنا . ترويسات تبين وحدها في الامامية . لغة الانفعال ، مرنة ، لطيفة ، خفيفة الحركة . تستمد زخمها من الاشـارات المختصرة البسيطة ، التي تليها .

ثم يأتي العقل فيتبع نظام الالصاق ، اي انه يلجأ في اللغة المكتوبـة الى الروابط والعلامات النحوية ، لانه مطبوع على الدقة في التعبير . ولديه من الوقت ما ينفقه في الامعان والتحضير . هو يبحث عن صلة الكلمات بعضها ببعض ، وصلة الجمل بعضها ببعض . لذلك نراه يعقد طرق التعبـير وفقاً لانواع الفكرة المختلفة الدقيقة . نظامه نظام المط ، والتوسيع في الحركات . « ويش بدّك ، في اللغة المحكية ، تصبح « اي شيء بودّك » في اللغة المكتوبة .

***

احصل من هذا ان الازدواجية تعتري كل لغة في العالم . هي احدى المعطيات البديهية في حياة الشعوب الراقية . كلما تحضر الانسان احتاج الى كلمات جديدة يعبر بها عن معان تقصر اللغة العامية عنها . لذا يلتجيء الى الفصحى طالباً الروية في التعبير ، والنظام النحوي ، الذي لا يتبـدل في جميع العمليات ، نظامه ثابت مستقر ، عكس نظام الحاجة اليومية، القائم على التغيير . نظام القلب عدم استقرار وانسجام . الشامي يقول : شلونك. اللبناني يقول : كيف حالك . المصري يقول : إزّيك . والمراكشي يقول : لا باس عليك . فتأملوا ، وجاوبوني : باية لغة عامية نكتب ؟ اما لغة العقل فهي واحدة ، ما دامت الفصيلة واحدة ، لان العقل يميل الى الاستقرار والتعميم .

أجنّ ابناء اللغة العربية ليطالبوا بمثل هذا التخريب لكيانهم القومي ؟ ابامكان اللغة العامية ان تحافظ على وشائج الصلة الفكرية بيننا وبين اسلافنا من فلاسفة ، وشعراء ، وحكماء ، وناثرين فطاحل ؟ ابامكان لغة مستلزمات الحياة اليومية (اعني لغة البائع ، والسائق ، والنجار ، والطبيب) ان تعبر عن ادق خطرات الفكر ؟

لا خوف على اللغة الفصحى ، عندنا ، من الذين يريدون القضاء عليها . لو عقل هؤلاء لعلموا ان محاربتهم للفصحى هي محاربة لناموس طبيعي صرف. ومن هنا ثقتي وايماني بها ، لان الناموس الطبيعي ضدهم في هذه القضية . واذا كانوا يرمون الى تيسير اللغة العربية ، وجعلها اكثر ملاءمة لروح الزمن ، الذي نعيش فيـه ، فعليهم ان يدركوا ان للتيسير حداً لا يتجاوزه . التيسير كلنا نريده ، ولكن ضمن حدود منطق الحياة ، الذي يفرض هو ذاته ازدواجية في اللغة .

٤
اساليبنا التعليمية

اعود الآن الى السؤال ، موضوع هذا الحديث : هل ساعد التعليم ، في لبنان، على خلق المواطن الصالح ؟ الجواب : كلا ، لان طرقنا التدريسية خالية من التسليم نظراً بتوقيفية اللغة العربية (اي بانها وقف علينا) ومن العمل جدياً على تحقيق هذه التوقيفية ، في جميع مراحل برامجنا. ومناهجنا. هذا الموقف السلبي من اللغة العربية جعل اساليبنا التعليميـة لا ترى في التلميذ رأسمالا قومياً . بذلك خانت معطيات الانسان البديهية ، واخفقت في اعطائه التهذيب الادبي اللازم .

ان خلو مناهجنا من احترام اللغة العربية ، قولاً وفعلاً ، جعل التربية (في لبنان) تقف عند حد التعليم . عند حد التثقيف ، اي عند حـد الذاكرة . لهذا جاءت برامجنـا استذكارية ، همها ان يخزن الطالب في الحافظة – على ظهر قلب – كماً لا كيفاً ، اي ان يحشو رأسه ببرامج

وضعت لسواه ، بغية اجتياز الامتحان فقط . والامتحان ، كما يطبق في لبنان بلغات غير اللغة العربية ، هو من اشد ويلاتنا القومية . انه مليء بالخوف ، وعقد النقص . مليء بالعبودية للغات الاجنبية ، لان التعلم بلغة غير قومية يزيد على عقبة فهم المادة عقبة فهم اللغة ، فتصبح قبلة الطالب ان يستظهر معلومات ، بدلا من ان يتمثل ويعيش بامانة وحرية ما يتعلمه .

المدارس عندنا (مهما اختلفت عناوينها ، وتباينت وجهات النظر فيها) هي امكنة فقط لتلقين اللغات والعلوم ، بطريقة كمية لا كيفية ، بغية ايصال التلميذ الى الامتحان ، وانجاحه في الامتحان . اما الشعور القومي الانساني ، اي تهذيب الطالب اخلاقياً ليكون مسؤولا عن مصيره في الوجود ، فهو شيء مفقود تماماً من اساليبنا التعليمية . كيف لا ، واللغة العربية – التي هي الشرط الاول في الشعور القومي – لم تحط بعد المركز الاول بين اللغات المنتشرة في ربوعنا .

من جملة اخطائنا التربوية اننا لانفرق بين مفهوم البرامج ومفهوم المناهج . والحقيقة ان البرامج غير المناهج . البرامج ترتيب كمي للمواد الدراسية . هي ان نعطي التاريخ، مثلا ، حصصاً مساوية لحصص الجغرافية. هي ان تنظم الامتحانات ، من جهة الادارة . هي ان نحذف المادة الفلانية ، وان نضيف المادة الفلانية . هذه التعديلات ، التي تدخل على التعليم ، لا تمس قضايا تربوية في الصميم . هي تدبيرات من الخارج ، ليس الا .

اما المناهج (وكلمة منهج تعني الاتجاه نحو غاية معينة) فهي الروح التي تهيمن على البرامج . هي النظرة الفلسفية التي تضع حياة في البرامج . هي السياسة التي تعطي البرامج معنى قومياً وقيمة انسانية . هنا بيت القصيد ، في ما اعتقد . قد يطول برنامج ، ويقصر آخر . قد تحذف مادة وتضاف مادة . ان مثل هذا العمل الكمي لا يجدي نفعاً ، اذا كان لا يرتكز على نظرة فلسفية ، اي على تربية تكون امينة لحقيقة الانسان . ان الكم لا يحدث كيفاً، مهما اضف الى ذاته. يعني ان البرامج سواسية من حيث الكم، ما دامت لا تشغل الا الذاكرة .

لو نحرينا برامج العالم كله ، لوجدناها واحدة ، من جهة الكم . السلب او الايجاب هو في المنهج الذي يحول كم الذاكرة الى كيف الارادة . البرامج تختلف بمناهجها ، لان العبرة كل العبرة ليست في ما يتلقنه الطالب على ظهر القلب . العبرة هي في المنهج ، اي في الروح التوجيهية التي تجعل من التلميذ انساناً يحب وطنه ، ويحترم اوطان الآخرين . قد تكون البرامج حسنة ، وتكون مناهجها سيئة . ويقيني ان برنامجاً سيئاً ، يرتكز على منهج حسن هو خير من برنامج حسن يرتكز على منهج سيء . متى وجد المنهج الصالح حسن البرنامج القبيح ، واتجهت التربية نحو هدفيها الواجبين : القومية والانسانية . مشكلة التعليم ، اذن ، هي مشكلة مناهج لا برامج ، اي مشكلة تربية قومية . هذه التربية القومية ، التي تعد الطالب لان يكون ما يجب عليه ان يكون (اي مواطناً واعياً) لا نجد لها اثراً في مناهجنا . لا نجد لها خطة مرسومة ، ولا لجاناً تبحث ، وتدرس ، وتقرر ، وتوجه . لا نجد لها سياسة تفرض ذاتها .

ولكن التربية اغنى مرافيء الحياة ، بلا نزاع . حياة الامة كلها تعلو بالتربية . ومن هنا كانت دورتها ، في حياة الشعوب، دورة خلق وابداع، يخرج الناس بها اكبر مما هم . غايتها ان تجعل الانسان يعي ذاته في شقيها الصافيين : الوطن والعالم . ان تجعل منه كائناً مسؤولا ، وبالتالي حراً . انها تتناول الانسان رمة . تتناوله من النشأة الاولى الى النشأة الاخيرة ، لانها المصب الذي تلتقي فيه قوى النفس كلها ، وتتوزع في شرايين الوجود . غايتها ان تجعل من كل واحد سياجاً لوطنه ، كي يكون سياجاً للعالم . ان يكون ركناً من اركان امته ، ليكون مدماكاً ثابتاً في صرح الانسانية . غايتها ان تقول لنا ان اللغة العربية وقف علينا ، في جميع مواد التدريس ، وانها لمن اعرق لغات البشر . ان التعبير عن روح الامة لا تكون الا بلغة الامة .

***

كم من مرة عدلت الاساليب التعليمية ، عندنا ، ولكن بدون جدوى. مدارسنا ، من الوجهة العملية ، ما فتئت عجلة التعليم فيها تدور دورة رتيبة مكررة ، دون ان يطرأ عليها شيء جديد من الوجهة النظرية ، ما فتئت متمسكة بفكرة واحدة ، تؤثرها على غيرها من الافكار . ظل نظامنا جمجمة ، لان التعديل لم يمس الا البرامج ، اما المناهج فقد بقيت على حالها. بقيت مطاعيم مستوردة من غير شجرتنا ، اعني بقيت عبدة لثقافات اجنبية دخلت بيتنا ، وتربعت فيه . وهكذا تتململ بين سيخ جارحه ، في كل مرة نهم لوضع مناهج تربوية صالحة . والثابت الذي لا شك فيه هو ان الامه ، العزيزة الجانب، لا تأخذ مناهجها من بيت الجيران ، بل نحرص كل الحرص على صيانة حرمتها وحرمها .

لقد تبدلت مقتضيات الحياة ، وتغيرت مستلزماتها ، ونحن ما زلنا نتمرغ في القديم البالي . المعرفة تهجرنا ، والجرأة تنقصنا . لم نع بعد ان مشكلة التعليم اشد تعقيداً مما نظن ، وابلغ في الخطورة . ان جميع الذين نظروا في اساليبنا التعليمية ، ممن تولوا امور التربية عندنا، اظهروا ببلاغة نقص انظمتنا التوجيهية . وكلما طلب منهم ان يعرضوا ما يغير هذه الانظمة ، نضب معين تلك البلاغة ، واقتصر اصلاحهم على تعديل البرامج . وهو عمل صبياني ، ليس الا . لا قيمة للاصلاحات التي يؤتى بها ما لم تتناول مشاكل التربية من الاساس . لقد اصبح انتقاء مناهج اخرى امراً لازماً لازباً ، ونحن ما زلنا نعول على مناهج كانت ملائمة لزمن قد فات .

نحن نقلد ، لا اكثر ولا اقل . نقلد الغير ، ولا نعيش معطياتنا. نقلد اللاتين في اسوأ ما لديهم ، ونقلد الانكلوسكسون في اسوأ ما لديهم .

كتب مدرسية للاطفال

حسابي : سلسلة مؤلفة من جزءين تعلم الحساب بالصور

المروج الملونة : تعلم القراءة بالبطاقات الملونة .

الجديد في الخط العربي : خمسة اجزاء .

ندرس لغات الآخرين ونجهل لغتنا. ندرس تاريخ الآخرين ونجهل تاريخنا. من نحن اذن ؟ الا يصح ان يوجه الينا توبيخ هوميروس : بلا عائله ، بلا قوانين ، بلا بيت ؟ الانسان ، جوهراً ، كائن حـــر . والحريه لا تؤخذ ولا تعطى ، بل تبنى . والبناء عمل تربوي صرف . والتربية ترمي الى ان تهذب النفس قومياً . واول شروط القوميه احترام اللغه — الام . من هنا يجب ان نبدأ تقويم التعليم ، في لبنان ، ليتمكن من ان يخلـــق مواطنين صالحين .

رب معترض يقول : وما بال اللغة العربية ؟ بالها انها لم تتغلغل في صميم كياننا القومي . بالها انها ظلت على العتبة ، فلم تدخل تحت سقف بيتهـــا . بالها انها بقيت لغة الادب والشعر ، فقط ، دون ان يخرج بها المسؤولون الى فضاءات ارحب ، واشرح . الى فضاءات العلوم كلها . لا اعلم لمـــاذا نصر على حصرها في دائرة الادب . لماذا لا ننطلق بها في مجالات المعارف البشرية . ان الامة التي تغار على شرفها (المعنوي والجسمي) تذود عن لغتها ، ولا ترضى منافسة لها في عقر دارها . الامة الواعية لا تقبـــل ان يكون لها لسان ، غير لسانها ، لتلقين العلوم . هي ترفض ان تكـــون لغتها راقية في ناحية ، ومنحطة في ناحية . الامة الصحيحة الطبع هي الـــتي تعمل على تعزيز لغتها ، في جميع الميادين العلمية . علينا ان نجعل العربية ، عندنا ، لغة التاريخ ، والجغرافية ، والفلسفة والعلوم الرياضية، والطبيعية. الامة الشريفة هي التي تعم لغتها كل مرافيء الحياة الاجتماعية .

وفي الختام لا اغالي اذا قلت إن التاريخ المقبل سيعنون جيلنا الحاضر، في لبنان ، جيل اللغة العربية . ولا عجب ، لان الذي ينظر الى ابعد من نطاق الحوادث الظاهرة ، ويتأمل نشاطاتنا الاجتماعية من سياسة، واقتصاد وغيرها على انها نواح فكرية ، يعلم حق العلم ان امور العقل هي الاشياء الصامدة ، في النهاية . ان موقفنا من اللغة العربية يعكس بالضبط موقفنا من اي شيء آخر . موقف ارتياب ، وخوف ، وتصاغر .

مسكينة ، حقاً ، هي لغة الضاد . يتهمونها بالجفاف ، والعقـــم ، والتقصير ، ويرمونها باحد نبال الطعن ، ويقولون فيها الشيء الكثير . لقد سطا على عقولهم جبل ، وعلى عيونهم ضلام ، وعلى قلوبهم غشاوة ، وكان لهم في تقديرها الخذال . لو كانوا يعقلون . ولولا ذلك الكتـــاب الكريم ، وذلك الفريق العاقل من ابنائها الاوفياء ، في مختلف الاديان والبلدان ، وذلك النفر القليل من المستشرقين المنصفين ، لدفنها جهال بنيها ، وهي حية ترزق . ولكنه هو الحق . انهم لا يتذعرون من شيء ، اذا كانوا بصحة قولهم واثقين ، وبرهم مؤمنين .

لقد ضل الماكين في تقديرها . ضلوا سبيل فيضها الكبير ، فوقفوا على رشح صغير ، وهم يحسبونه كشفاً وهداية . ثم مرقوم الخنوع اشتاتاً على ابواب الناس ، يستجدونهم خبز المعرفة ، وما ذلك الا فضـــلات موائدهم ، وهم يحسبونه كسباً وثراء .

***

الانسان بأصغريه قلبه ولسانه ، فهل لهذا القلب الواحد غيـــر لسان واحد ، يكشف به عن كنهات نفسه وخطرات فكره ؟ وهل لشعـــوب الارض مرآة اشد جلاء من لغة ابنائها ؟ او ليس مجرماً من يقطع لسانه بيده ، ثم ينحر نفسه مختاراً ؟ ومن ذا الذي يدفع بنفسه الى الـــوراء ، ليشابه الحيوان في جهله، والنبات في سكوته ، والجماد في سكونه ، ثـــم يدعي ان الله خلقه على صورته ومثاله ، وانه محسوب وقفاً على الحياة بقدر كبير من الروح ، والعقل ، والجمال ؟

قد يفعل هكذا من لا لغة له الا الاشارة ، او من كانت لغته وليدة الزمن الاخير ، عاجزة عن تأدية البيان في مجال التحبير والتعبير . وليست العربية هكذا ، فان الحلقة الاولى من سلسلتها المتطاولة لا تزال تحت اقدام المؤرخين ، وحتى الان لم يصلوا الى حقيقة راهنة منها ، بل كل ما هنالك في هذا الشأن ، هو على سبيل المظنة والتخمين . وهكذا قل عن الشعوب العربية في مدى التاريخ البعيد .

فاذا كان الانسان باصغريه قلبه ولسانه ، وكان هذا اللسان عاجزاً عن تأدية التعبير . في مهب العواطف القلبية والعقلية ، او انه يؤديه بعجز وغموض ، فاين هو الانسان ؟ واين هي صورة الله فيه ؟ وما هو عذر ابناء العروبة امام هذه النتيجة المؤلمة يا ترى ؟ لا، ما كتب لهذه اللغة ان تداس تحت اقدام الهوان . ولا كتب للناطقين بها ان يظلوا في مؤخرة القافلة ، الكادحة ، نحو البلاغ الاكبر . لقد انكشف الليل ، وبان الخيط الابيض من الخيط الاسود . لقد اندحرت جميع الادعاءات الساخرة ، وانطوت صفحة العداوة التي كان يشنها الجاهل . ان جميع العلوم الانسانية من تاريخ ، واجتماع ، ولغة ، وفلسفة ، وعلم النفس ، تؤكد لنا ان اللغة العربية ستكون ترجماننا الامين ، في الشرق العربي . ستكون منا صك خلود في يد الزمان الهروب . بها نستقر في ذمة البقاء ، وبها تطلـــع الاجيال المقبله ، فتستشرف العلاء . هذه اللغة الكريمة في غمرة من نعم الله ، وآياته . ولو كابر الملحدون بها * .

كمال يوسف الحاج

* محاضرة القيت بدعوة من « هيئة المحاضرات في كلية المقاصـــد الاسلامية» ببيروت .

صدر اليوم

الجزء العاشر

من الترجمة الكاملة لكتاب

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

اطلب من المكتبات ايضاً المجلدات الاول والثاني والثالث وهي تشتمل على الاجزاء العشرة الاولى من هذا السفر النفيس.